الفصل الثالث

التربية فى مجتمعات بدائية(١)

والحديث هنا عن أقوام عاشوا آلاف السنين قبل الميلاد ، وقبل أن تعرف الكتابة ، بل قبل أن يسجل التاريخ وتبدأ بما يسميه المؤرخون العصور التاريخية .

وفى هذا الفصل سنتناول بالعرض السريع لأفكار وطيدة الصلة بالتربية وتاريخها ، وقد نعتبرها ركائز للأصول التربوية اليوم ، فعندما نتكلم مثلا عن التربية والتغير الثقافى إنما نلمس واحداً من أهم الأعمدة التى يشيد عليها صرح التربية عبر العصور . ثم نتحدث عن نشأة المؤسسات ذات الإسهام التربوى ، ونتعرض للعوامل المؤثرة فى التربية ، والتربية والثقافة ، والتربية والتقدم .. وهذه كلها وغيرها قضايا يعالجها رجال التربية اليوم ، ولكن لها أسسها التاريخية ، هى لهذا جديرة بنظرة فاحصة . ولكن كتاباً فى مثل هذا الحجم لا يسمح — لا بخلا ولا تقليلا من القيمة — إلا بصفحات قليلة تفتح رءوس الموضوعات وقد ندعو القارىء إلى مزيد من الاطلاع .

إن قصة الإنسان على الأرض (أو ما يسمى بالتاريخ) هى قصة صراع دائب ، صراع الإنسان ضد العالم الطبيعى وضد أخيه الإنسان ، إن ما نشاهده اليوم فى عالمنا من مظاهر دينية واقتصادية وخلقية وعقلية واجتماعية وسياسية وتربوية هى نتاج هذا الصراع المستمر . وقد حدث فى أوقات أن طرأت على الصراع تغيرات ، فمثلا كان الإنسان فى وقت يصارع ليضمن أمنه وبقاءه ضد

---

(١) يرفض العلماء اليوم استخدام ألفاظ مثل : الهمجيون ، البرابرة ، غير المتمدنين اوصف إنسان ماقبل التاريخ . كما أن بعض علماء الأجناس يرفضون استخدام لفظ غير المتمدنين على أساس أن هؤلاء الناس كانوا عبيد عادات غير منطقية وسحر . . إلخ ويفضلون استخدام تعبير « إنسان ما قبل التاريخ » لمن عاشوا منذ سنة آلاف سنة .

قوى الطبيعة والحيوانات الغاشمة أو فى وقت آخر كان صراعه ليبنى مدينة الله حيث الفضيلة وليحطم مدينة الشيطان بما فيها من الشر والغواية والفساد . وفى وقت ثالث كان هناك صراع العلم ضد الدين ... ثم هناك دائماً صراع ينشد القوة والسلطة ... الخ .

ولم يخل واحد من هذه الصراعات من دور هام لعبته التربية .

وقد أثرت التربية فى كل صراع ، وقد حفظت التربية عبر العصور المؤسسات الاجتماعية ، فعندما تأثر المجتمع بالثورة الصناعية ونتائجها فى منتصف القرن التاسع عشر فى أوروبا ، ظلت غالبية المدارس تجنح إلى الإبقاء على طابعها الأكاديمى حتى قبيل أن ينتهى هذا القرن ، فى وقت أحدثت الثورة الصناعية فى طرائق الحياه فى المجتمعات تغيرات شتى ، والمعروف أيضاً أن غرب أوروبا شهد فى القرن الثامن عشر ثورة سياسية متجهة فى إصرار صوب الديمقراطية(١) ...بل إن بعضها إلى اليوم ما زال يتدثر بهذا الطابع . وفى تاريخ مصر تغيرات اجتماعية وسياسية كثيرة طرأت على المجتمع ، ومع ذلك فان المدارس — بصفة عامة — ظلت تغط فى سبات قرون مضت ، كما سيجىء بيانه فيما بعد .

إلى أى حد تستطيع المدرسة والتربية أن تسهم فى التغير الاجتماعى ؟

هذا سؤال سنتناوله فى ثنايا عرضنا لتطور التفكير التربوى فى العالم خلال صفحات هذا الكتاب .

إن لكلمة « مؤسسة » معنى تاريخياً وتربوياً : فالمؤسسة بطبيعتها تضم مجموعة أفكار ، وخلف كل مؤسسة فلسفة ، واتجاه نحو جانب أو أكثر من جوانب الحياة ، وأيديولوجية ، أو عنصر روحى . وقد تكون المؤسسة شكلا من أشكال الحكومات أو نظاماً معيناً من القوانين ، أو دستوراً ، أو حتى آلة حربية قادرة على التدمير والهلاك ... المهم أن كلا من هذه وغيرها تستند إلى أفكار معينة . وقد انبثقت هذه الأفكار من بيئة الإنسان ، وهذه الأفكار

---

(١) James Mulhern : A History of Education pp 3-4

لم تولد مع الإنسان ولكنه اكتسبها إما بمجرد الملاحظة أو التلقين أو الدراسة الخ.

ثم إن هذه الأفكار ، والفلسفات المتنوعة ، والاتجاهات ، والقيم التى يعيش بها الخلق تختلف باختلاف الزمان والمكان . فمثلا نجد أن تعدد الأزواج (والزوجة واحدة) أمر عادى فى بعض جزر المحيط الهادى ، كما أن قتل المرضى المسنين والميئوس من شفائهم عمل (إنسانى) تحتمه عادات وتقاليد بعض أقوام أواسط أفريقيا ممن لم تتغلغل المدنية الحديثة إليهم . بل المعروف أننى — أو أنت — إذا كنت قد نقلت تواً بعد ولادتك إلى عائلة يابانية تعيش فى اليابان لنشأت يابانياً بوجه وملامح مصرية ، لكنك يابانى فى قيمك وعاداتك ولغتك واتجاهاتك ...

ويرى البعض أنه بالرغم من تأثرنا ببيئتنا الحاضرة إلا أن الماضى له آثاره ، ولم يمت الماضى ، بل هو حى : ويقول جيمس هارفى روبنسون فى كتابه Mind in the Making إن العقل الحديث ، حديث جزئياً ، وأن جوانب كثيرة منه ساكنة فيه منذ أيام ماضينا البدائى السحيق . ومعنى هذا أن أفكار الإنسان اليوم هى نتاج بيئته الحاضرة وماضيه القريب والبعيد .

ومنذ أقدم العصور وهناك عوامل أساسية أو قوى فعالة مؤثرة على أفكار الإنسان ومؤسساته ، من هذه العوامل : الاقتصادية — الدينية — الاجتماعية — والسياسية ، وإذا كانت درجة تأثير كل عامل تختلف حسب الزمان والمكان كما أوضحنا من قبل ، إلا أن العامل الاقتصادى كان أكثرها فعالية فى تحديد الفكر البشرى فى هذه العصور الأولى ، ولعل هذا متوقع ، فان احتياجاتنا الأولية جسمية . حقاً « ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان » ، ولكن بدون الخبز لا يستطيع أن يعيش جسمياً ولا روحياً . وقد يستطيع الإنسان أن يعيش — فى ظروف جوية مناسبة — بدون ملابس ، وبدون سقف يحتمى به أو مأوى يلمه . ولكن أبداً لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدون غذاء ، فالغذاء يعمل على استمرار الحياة التى بدورها تستطيع أن تخلق الفن والمبتكرات ، وتقدم الفلسفات وتكون الآراء .

ويلوح لنا أن القوى الدينية التى خضع لها الإنسان الأول منذ عدة آلاف من السنين ، والتى كان لها التأثير الفعال على حياته الفكرية ومؤسساته تأثرت كثيراً بالظروف الاقتصادية . فقد جهل هذا الإنسان أسباب الغالبية العظمى للظواهر الطبيعية ، وخاف الرعد والبرق ، وكان عليه أن يتقرب بوسائل شتى من القوى التى تتسبب فى هذه الظواهر الطبيعية ، فى البداية كان الخوف ، الخوف فى قلب كل إنسان ؛ وتحكم الخوف فى الإنسان ، تحكم فى حركاته ، ولم يترك له لحظة هدوء . خاف الإنسان الأول النار والعواصف والرعد والموت .. ثم تعلم كيف يحمى نفسه ، ونقل إلى أبنائه وأحفاده تلك الطرائق التى أثبتت فعاليتها فى مجابهة الأخطار .وكان الإنسان الأول عبداً لحاجاته العضوية وعبداً لمخاوفه من القوى الخفية . ولذلك فاذا جاز لنا — فان أهدافه من التربية كانت :

١ — الحصول على ضروريات الحياة للفرد ولأسرته .

٢ — مسالمة وتهدئة هذه القوى الخفية .

وقد خاف الإنسان الأول الجماد أكثر من خوفه من الكائنات الحية . بل إنه أعطى صفة الحياة لكل شىء ، الأشجار ، والصخور ،والعواصف . كل شىء يغضب ويرضى ، يثور ويهدأ ، قادر على تدميره وقادر على أن يتركه لحال سبيله . وكان على الإنسان أن يكيف حياته وفق معتقداته هذه . لكل شىء روح وجسم ويجب أن يرضى الإنسان روح الشىء حتى لا يصيبه الجسم بأضرار تهدد حياته أو تنهيها تماماً (١) .

يقصد بالعوامل الاجتماعية كل مظاهر الحياة فى أى مجتمع مما تؤثر على الأفراد . وقد تستخدم استخداماً عريضاً لتشمل المظاهر الاقتصادية والسياسية والدينية . ولعلنا فى استخدام عبارة العوامل الاجتماعية نقصد بها تنظيم أو تكوين المجتمع والعلاقات بين مختلف أجزاء هذا التكوين ، بمعنى أننا نؤكد على علاقة الفرد كفرد بالمجموعة كمجموعة ، وعلاقة الجماعات الصغيرة المكونة

---

(١) سعد مرسى أحمد : التربية والتقدم . ص : ١٣ .

للمجموعة الكبيرة بعضها بالبعض الآخر ، ثم علاقة كل مجموعة صغيرة بالمجموعة الكبيرة .

بل إن هناك نزعة عند الإنسان تدفعه إلى العيش وسط مجموعة يتفاعل معها ، يؤثر فيها وتؤثر فيه . هذه النزعة بطبيعتها (اجتماعية) وليست دينية أو اقتصادية أو سياسية ، وكما أن الكثير من الطقوس الدينية والعبادات تأثرت بالظروف الاقتصادية ، فكذلك الأمر أيضاً مع الكثير من أشكال التنظم الاجتماعى والعادات . ومع هذا فلم يمنع الأمر أن القوة الاجتماعية مارست نشاطها أحياناً كقوة مستقلة ، فقد أقيمت أنظمة اجتماعية على أسس العبودية ، كما أن الفوارق الطبقية داخل نظام اجتماعى واحد أمر طالما شهده التاريخ . كما شهد أيضاً موقف المرأة ومكانتها بالنسبة للرجل حيث كانت له منزلة (أسمى) تمثلت فى حقوق أكثر تمتع بها .

وقد ظهرت أشكال مختلفة للحكومات منذ آلاف السنين ، ولظهورها انبثقت القوى السياسية — كما أطلق عليها اليوم — فعندما نما الإنسان صاعداً سلم الحضارة وانتقل من مرحلة البداوة والتجوال إلى مرحلة الزراعة والاستقرار فى مكان وضع يده عليه قائلا أنه أصبح يملكه .. هنا بدأت حكومة القبيلة تأخذ شكلا فيه تحديد ، وصار حاكم أو رئيس له سلطات ، وغالباً ما تطور الأمر إلى أن يورث الحاكم الرئاسة إلى نسله ، فللحكومات بهذا الشكل طابع تكون من الاستقرار على أرض معينة . وهذه الأرض كونت رابطة جمعت بين السكان حلت (أو أحياناً عضدت) رابطة الدم التى جمعت بين الأفراد أيام بداوتهم وتجوالهم . ثم تجمعت واتحدت قبائل متعددة ، ومن هذا الجمع نشأت الدول السياسية فى الشرق والغرب . ولكل دولة حكومتها ، وكانت بعض الحكومات متسلطة ديكتاتورية ، وبعضها ديموقراطى . ومهما كان شكل الحكومة ، فإن التربية حازت نصيباً غير قليل من الاهتمام . وكان هذا أمراً ضرورياً ، فإن القوى المختلفة خلقت أفكاراً وفلسفات واتجاهات الخلق ، ولكى يحتفظ بهذه المنجزات غير المادية ، ولكى يعمل الناس على تنميتها

أوجدوا المؤسسات . ومن بين هذه المؤسسات ، المدارس (١) .

وقد عاشت المدارس — على صور مختلفة — فى كل مستوى اجتماعى . بل كانت هى أكثر من أى مؤسسة أخرى قادرة على أن تعكس ظروف الحياة واتجاهات الناس الذين أوجدوها . ففى المدارس تتداول الأفكار التى ولدها الإنسان ، أو ما يطلق عليها تعبير « الحقائق الروحية » ، وهذا يدعو بالضرورة إلى دراسة القوى التى تنبثق منها الأفكار (٢) .

طرائق الجماعات فى التغير : وقد عرفنا أن الثقافة تختلف من مجتمع لآخر وفى المجتمع الواحد من زمن لآخر . وكان وما زال هذا الاختلاف ضرورياً . وعلى المستوى البدائى نجد أن التقدم (وهو تشكل الإنسان تبعاً لبيئته المتغيرة) يتضمن مفهومين :

١ — أن البيئة تتغير ، وهو أمر يتم خارج الإنسان وذاته أى العالم الخارجى .

٢ — أن التغير اللا مادى الذى يتم داخلياً فى الإنسان مفروض عليه نتيجة تغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أو الدينية .

وكما أن أفكارنا تنبثق من البيئة ، فغالباً ما يسبق تغير الأفكار تغيرات فى البيئة ، أى العالم الخارجى . على أن التغير الخارجى أسرع فى حدوثه من تغير الأفكار أو ما يمكن أن يسمى فى العصور السحيقة بالتغير الروحى . وفى الواقع أنه منذ تلك الفترة المبكرة جداً فى تاريخ البشرية كانت لدى الإنسان ـ داخليا ـ قوى محافظة عملت دائماً ضد تغيير العقائد والاتجاهات وضد تغيير الحياة الاجتماعية بنظامها . وكانت دائماً تظهر جماعات تناهض التغيير فى عزم وإصرار ، وقد أطلق عليهم علماء الأجناس تعبير « التخلف الثقافى » وما أشبه اليوم بالبارحة البعيدة جداً ، فقد دخلت الثقافة المصرية العصور الألكترونية وعرفت التكنولوجيا الحديثة طريقها إلى بعض مناشط حياتنا العملية وغيرها . ومع ذلك فما زال طابع غالبية التفكير يحيا فى عصر مضى مكوناً تخلفاً ثقافياً .

---

(١) يحلو للبعض أن يطلق على المدرسة تعبير منظمة ويرى أنها ليست مؤسسة .

(٢) Mulhern, op. cit. pp. 6—7

خاف الإنسان التغير — كقاعدة — لأن التغير كان تهديداً عند البعض لأمنهم المادى ، للقوة التى يتمتعون بها ، وكان التغير تهديداً عند جماعة أخرى للهدوء الروحى الذى يستمتعون به . وقد وجد الإنسان فى الماضى البعيد ، وحتى اليوم ، فى العادات ، وطرائق الجماعة ، والدوجما بأفكارها المسبقة ، وجد فيها القبول العقلى والروحى ووجد فيها المؤكدات ، التى اذهبت عنه مخاوفه الكثيرة . ولكن مسيرة الإنسان الطويلة عبر التاريخ هزت فى سيرها بهذه المؤكدات ، هذه المعبودات التى تهاوت واحداً بعد الآخر لتحل محلها مؤكدات أخرى يقبلها عقله . وتبين شواهد التاريخ أن أكثر ما طلب الإنسان العثور عليه لم يجده . فليس هناك شىء مؤكد (فى نظر علماء الأجناس) إلا التغير ... الشىء المؤكد أنه غير مؤكد .

عندما عجز الإنسان البدائى عن العثور على ما أراده من العالم المرئى أمامه انتقل بعقله إلى العالم الخفى الذى يتعدى نطاق الزمان والمكان ، عالم الكهنة وطقوسهم ، عالم ما بعد الطبيعة . بحث الإنسان وظن أنه وجد المطلق النهائى واللامتغير من المؤكدات التى لم يستطع العالم المرئى الحسى أن يمده بها . ورأى بعض الفلاسفة أن العالم الذى نعيش فيه هو مظهر وصور ، هو تغير ، عالم غير حقيقى . وجد الإنسان بتخيله ملكوت المطلق مهدئاً روحياً ومنجاة من الهزات الشديدة التى دفعته إلى أعماق دائمة التغير حيث ينبت شيطان الخوف رعباً فى النفوس القلقة الحائرة . وقد حاول الإنسان البدائى — كما حاول غيره فيما بعد — أن ينزل هذا المطلق إلى العالم الواقعى ، ولكنه فشل . واكتفى الإنسان بأن يحلم بالخير المطلق والعدل المطلق مثلا ... ، بل إن محاولة موسولينى الفاشستية كانت تدعو إلى هذا المطلق وأحلامه الوردية للإيطاليين ...

لقد وجد الإنسان الأول ومن بعده أقوام بدائيون فى طرائق حياتهم وثقافتهم بعض المؤكدات التى رغبوها . وسادت عادات وتقاليد ارتضاها الجميع . غير أن أفراداً قلة حادوا عنها فرفضهم العقل الاجتماعى ، وعاقبتهم

الجماعة . على أن بعض المارقين الخارجين على ما اعتادته الجماعة لم يكونوا دعاة الشر ، ولكنهم كانوا عباقرة فوق مستوى المجموعة وأفكارهم سابقة على زمانهم ... وقد عوقب بعضهم بأقسى ما يمكن أن يتصوره عقلنا من صنوف العذاب قبل أن يعدم ، وأقصى البعض الآخر أو كمم فمه فلا يتكلم أو كبلت يداه فلا يكتب . ويطوى التاريخ بعض صفحاته مع تعاقب الفصول والسنوات ويظهر هذا المارق الذى نكل به ، بطلا يستحق كل تقدير وإعجاب .

لم تكن – ولن تكون – طرائق الجماعة صواباً دائماً ولا خيراً دائماً .

ولولا بعض هؤلاء الخارجين على قوانين الجماعة وجمودها ومطالبتهم بالتغير الذى يتعدى هذا اللون من التغير البطىء جداً ، لولا هؤلاء لكنا نحن اليوم ما زلنا نعيش فى مجتمع عاش منذ مئات السنين .

ولسنا هنا فى مجال الحكم أى المعيشتين أفضل .

ثم هناك أيضاً المصائب التى حلت بأقوام ؛ كالبراكين والزلازل والفيضانات المهلكة والأوبئة القاتلة ، وهذه كلها ، وغيرها ، دفعت شيطان الحاجة إلى العمل السريع بحيث انثنت تحت أقدامه حواجز التغير التقليدية وانفتحت له أبوا التعديل وإعادة التشكيل . وحصل تقدم .

كما أن تبادل التجارة بين القبائل وبين المدن حمل معه نسمات التغير والتقدم فمع البضائع انتقلت أفكار وعادات وإذا كان القياس مع الفارق فانظر ما يحدث اليوم فى انتقال موضوعات أزياء الإناث (صغيرات وكبيرات وبينهن متوسطات السن) وكيف تنتشر بسرعة صاروخية . ليست المسألة مجرد تقصير الثوب (أو الجونلة) ولكن المعنى الذى تشتمل عليه .. ، وهن يستخدمن كلمة الحرية فى هذا المجال . ونحن سكان النصف الثانى من القرن العشرين قد عرفنا أشكالا معينة لنظارات الشمس التى تفضلها الحسناوات وغير الحسناوات على عيونهن الجذابة أحياناً وغير الجذابة أحياناً أخرى . وتعال معى اليوم لمعاينة هذه النظارات – وقد تفضل المعاينة على الآدميات أو عند آدمى يبيع هذه النظارات التى استدارت واستطالت وانبعجت وانثنت والتوت

وكبرت وتلونت ، حتى أن بعضها غطى نصف الوجه بلون بنفسجى على بشرة خمرية ورأس كستنائى ؛ وشمال فستان أخضر ينتهى بساقين أكثر خمرية وأغمق من الوجه تنتهيان بشيء ينتعل به القدم ، وتخرج منه خيوط تصل فى تشابكها الأنيق إلى الركبة ، وما أشبه هذا (الحذاء) بالأخطبوط وهو يلف الساق فى إحكام ما بعده من أحكام .

ثقافة ماقبل التاريخ :

بعد هذا العرض الذى تناول لمحات عن الإنسان وثقافته وتغيرها وطرق حياة الجماعة نمضى صفحات فى رحاب الإنسان منذ حوالى أربعة أو خمسة آلاف سنة من اليوم . وقد ظهرت الثقافة البشرية عندما أصبح الإنسان قادراً على نقل ما تعلمه إلى الأجيال التى تخلفه ، ويذكر أنه حوالى ٧٥ ألف سنة إلى ٢٠ ألف سنة مضت ، خطت الثقافة البشرية خطوات سريعة ، فظهر تحسن ملموس فى الأدوات الحجرية فى حدتها وشكلها ، كما ظهرت أدوات مصنوعة من العظام ، واستخدم الإنسان النار . وشكلت جلود الحيوانات وخاطها الإنسان ، وصنعت أوانى استخدمت ليوضع فيها الغذاء . كما اتخذ الإنسان الكهوف والأكواخ سكناً له . ورسم خطوطاً وصوراً ساذجة ، ونحت الأحجار . ويلوح أن محاولات جماعية تعاونت وبذلت فى البحث عن الطعام والحماية من الأعادى ، وأن هذه المحاولات اتسمت بالجدية والنظام ، كما أن احتفالات أقيمت لدفن الموتى ولأغراض السحر ولجذب رضا القوى التى ظنوا أنها تحكم الحياة بعد الموت (١) .

ثم نمت وتطورت الثقافة البشرية بسرعة فاقت السرعات السابقة ، وكان ذلك منذ ١٠ آلاف إلى ٨ آلاف سنة مضت . فقد تحسنت الأدوات الحجرية والعظامية ، وخططت وبنيت مساكن أكثر تعقيداً عما عرفه الإنسان سابقاً . واستأنس الإنسان حيوانات وزرع محاصيل تمونه بالزاد المستمر ، وخاط

1_ R. Freeman Butts : A Cultural History of Western Education. pp 2_4.

ملابس ، وعرف الغزل والنسيج ، وبنى قوارب ومراكب صغيرة استخدمها فى الرحلات والتجارة ، كما أن إنسان هذه الفترة من التاريخ استطاع أن ينظم حياة الجماعة فى المجتمع والتى كانت خليتها الأولى الأسرة ... وتفنن ونوع فى المراسيم والاحتفالات والطقوس ، كما تعددت معتقداته الدينية ، وعبر عن أحاسيسه فى أشكال فنية أكثر تقدماً وتنوعاً . ولا تسعفنا المعلومات بالمادة اللازمة لمعرفة أفكار إنسان ما قبل التاريخ ومعتقداته ومؤسساته ولغته وقيمه ، ولكن يلوح أنه استخدم الحركات والعلامات والإشارات والرموز التى أصبحت فيما بعد كلمات للتعبير عن أفكاره ونقلها للغير . ثم استطاع بعد ذلك أن يكتب الكلمات ويكون لغة مكتوبة . وعندما بدأت اللغة المكتوبة بدأ التاريخ . وأفسحت ثقافة ما قبل التاريخ الطريق للثقافات التاريخية . وفضل عظيم يعود للملايين من البشر الذين نقلوا أفكارهم بالكتابة إلى الأجيال اللاحقة ويدون هذه العمليات ما استطاع إنسان اليوم أن يصل إلى ما وصل إليه .

ثقافات ماقبل التاريخ (قبل عام ٤٠٠٠ سنة ق م) :

يلوح أن الإنسان قبل عام ٦٠٠٠ ق . م اعتاد الحياة فى انعزالية ، انعزل الإنسان كفرد ، وانعزلت الأسر ، ثم بدأ التقارب تدريجياً بين الأفراد وبين الأسر مستشعرين مزايا العمل المشترك والأمن المتزايد، ويلوح أن هذا التقارب أصبح حقيقة ذا فاعلية منذ ٤٠٠٠ ق.م ويلوح أيضاً أن ذلك التقارب كون أول أنواع المؤسسات الاجتماعية . ونشأت حينئذ أنظمة الحياة الفولكورية التى اختلفت من قبيلة لأخرى ، والتى نظمت وحددت فى نفس الوقت سلوك أعضاء القبيلة . كانت هذه الأنظمة الشعبية الفولكلورية متأثرة بظروف كل قبيلة . ولذلك تنوعت وأخذت أنماطاً وأشكالا عديدة ، ولكنها ظلت ثابتة فى إطار كل قبيلة لمدة زمنية طويلة ، وقلما هبت عليها رياح التغيير . وقد حدثت لها تغيرات ، ولكن بعد أن احتكت قبيلة ما بقبائل أخرى وأخذت كل من الأخرى ، أو عندما حتمت ظروف الحياة وما طرأ عليها من تغيير هين ممعن فى بطئه ولكنه مستمر ، أن تعدل القبيلة من طرائق حياتها . وكان هذا

أمراً جد عسير ، فقد سعى كل جيل فى قبيلة ما أن ينقل إلى غيره من الأجيال نظم وطرائق حياته دون مساس ولو طفيفاً .

إن نظرة عصرية — واستخداماً لمصطلحات حديثة — لما كانت عليه حياة هؤلاء الأقوام قبل أربعة آلاف سنة من الميلاد ، تبين أن ما وضعوه من (قوانين) حددت الحقوق والواجبات وعلاقات الأبناء بالآباء وبالغير ، وعلاقة القبائل بعضها ببعض ، وما يسمح بأكله ، واقتسام الغنائم فى الصيد أو الحرب والاحتفالات الدينية والإجتماعية ... إلخ ، كلها يمكن أن تصنف تحت : العائلة ونظم الزواج — المؤسسات السياسية — المؤسسات الاقتصادية والمؤسسات الدينية . على أننا يجب أن ننظر إلى كل هذه (المؤسسات) على أنها تكون فى تكاملها (نظام) المجتمع ، وكذلك كانت التربية ، فلم تكن مؤسسة مستقلة بل جزءاً متكاملا لحفظ ثقافة القبيلة .

ودخل الانسان التاريخ :

(بعد ٤٠٠٠ ق . م .) وكان دخوله — كما يبدو لنا اليوم — بعد أن تقدم فى سلم الحضارة بازدياد حياته تعقيداً ، مما اضطره إلى طلب المزيد من الحماية والعمل المشترك . بل إن التنظيمات الاجتماعية أصبحت ضرورة لاغنى عنها عندما استقر الإنسان فى وادى النيل بمصر . وفى بلاد ما بين النهرين — دجلة والفرات . وتقدمت ثقافة الإنسان فى خطوات عملاقة فى هذين المستقرين بفضل المياه التى حملتها الأنهار واهبة الخضرة ومطفئة الظمأ ورافعة عن كاهل الإنسان مهمة البحث عن الغذاء . وباطمئنان الإنسان إلى توافر غذائه أتيحت لذكائه طاقة وحرية لم يلبث أن أظهرها فيما خلفه لنا من آثار ميسراً لنفسه حياة أكثر رغداً ورفاهية ، بل ومتطلعا عبر أرضه لمزيد من الطمأنينة أو لمزيد من الخير .

عرف الإنسان المستقر فى وديان الأنهار تنظيمات إجتماعية على رأسها زعيم أو قائد صار ملكاً وحوله كهنة ، بعد أن (خلق) ذلك الإنسان آلهة يعبدها ويطيعها ويسترضيها . وبفضل هذه الرعاية صار حفر القنوات لتيسير الزراعة ،

ووضع القوانين لتحديد العلاقات ، وانبثقت مؤسسات دينية واقتصادية وسياسية لها تشريعاتها ... وكلها هدفت إلى تنظيم العمل التبادلى بين الناس لخيرهم واستمرارهم . وكما ألمحت ، فإن إنسان ذلك العصر عندما استقر تطلع عبر أرضه . وما جاء الألف الثالث قبل الميلاد إلا كان هذا الإنسان قد كون إمبراطورية بحد السيف ناشراً ثقافة وديانة الغازى ، بل ربما متقبلا لمحات من ثقافة المهزوم .. وتحت راية واحدة وزعامة واحدة ، دانت عشرات الملايين من البشر .. وبدأ التاريخ يلهث من وطأة قيام الإمبراطوريات ثم سقوطها ... وتوحدت فى أوقات كثيرة السلطة السياسية ممثلة فى الزعامة مع السلطة الدينية متمثلة فى كبار الكهنة . وصارت للملك — الكاهن سلطة مطلقة مدعمة بالقدسية ، كما صارت طبقة النبلاء والأشراف وكبار رجال الكهنوت لها كل الامتيازات . بل قبل الخلق أن تكون هناك طبقات وامتيازات طبقية دون شعور بغصة أو احتجاج .

واستتبع تعقد الحضارة والاتساع الأفقى والرأسى لمقومات الثقافة الذى عززته الاتصالات التجارية وتبادل المنافع والتجوال بين البلدان ، استتبع كل هذا ازدياد مهارة الفنانين والصناع ، فخرجت من بين أيديهم روائع فنية وأدوات وآلات تشهد ما حققه الإنسان من تقدم فى كافة المناشط العلمية والأدبية والفنية . واستمر العقل البشرى يفكر فى يومه وأمسه وغده ، وفى المشكلات التى تصادفه والتى ستصادفه ، فى الحياة وما يحدث بعد الموت ....

ومع ازدياد هذه المشاكل وغزارة ما قدمه عقل الإنسان كان لابد من وجود نظام معين فعال (لتدريب) الناس على مجابهة هذه المشا كل المتزايدة وإيقافهم على (أسرار) المدنية التى يعيشونها . وكان هذا هوالحال فى المجتمعات التى خطت خطوات جريئة سريعة على سلم التطور مثل المجتمع المصرى الذى حمته الصحراء الشرقية والصحراء الغربية وتركته رياح العدوان الأجنبى فى هدوء عدة قرون كان يبنى خلالها حضارة أذهلت العالم . وفى نفس الوقت تقريباً كانت هناك حضارة البابليين والآشوريين ، والفرس الذين كونوا

إمبراطورية شملت الأرض غرب الهند فيما كان معروفاً للعالم وقتذاك . وقد عرفت هذه الحضارة الكتابة وتركت لنا آثاراً تشهد على تقدمها ، بل إننا نقرأ ماخلفوه سواء على أوراق البردى أو على جدران المعابد أو على الأحجار .إلخ ما أراد هؤلاء القوم أن يعرفه الغير عنهم .

وفى نفس الوقت كانت هناك ثقافات تسير فى تقدمها بسرعات أبطأ ، فلم تعرف المدن الكبيرة ، بل ظلت تحت النظام القبلى آلاف السنوات . وحمل هذا التقدم البطىء تعقداً بطيئاً – ولكنه مستمر – مما أضفى على المعرفة البشرية – عندهم – طيفاً من الغزارة . على أن هذه الغزارة المتواضعة كانت عزيزة المنال إلا على نفر قليل من كبار السن الذين شهد لهم بالكفاية والقدرة والحكمة فهم حاملو نور المعرفة . ومن المحتمل أن شخصاً أو أكثر من هؤلاء (المختارين) كبار السن اتخذ لنفسه صفة التعليم ، فهو ينقل إلى الصغار أو الوافدين الغرباء إلى أرض القبيلة – أو القرية أو المدينة الصغيرة – ما يهمهم معرفته حتى يكون سلوكهم لائقاً ومقبولا من أفراد القبيلة المتمسكة بتقاليدهم وعاداتهم (وقوانينهم). ومن المحتمل أيضاً أن أفراداً من القبيلة مارسوا أعمالا متصلة بشفاء الناس من آلام أو أوجاع ، وبعضهم كان ينبىء عما سيحدث فى المستقبل وهم العرافون والمتنبئون ولهم مكانة كما كانت للمداوين حملة عقاقير الشفاء ، وكانت لهؤلاء وأولئك مكانة مرموقة ولذلك فقد جلسوا ليعلموا . ويشك قليل فى أن المقبلين على حياة الكهنوت بما فيها من الطقوس العديدة والأسرار الغزيرة كانوا يجلسون لحضور تدريب خاص يؤهلهم للبدء فى مباشرة مهامهم المقدسة .

ولاحت أول خيوط تعليم نظامى فى أماكن معدة لهذا الغرض .

نشأة المدارس والتعليم النظامى

لم تكن الحاجة تدعو فى القبائل (البدائية) إلا إلى ما يلقنه الآباء والأمهات إلى صغارهم ، وما يلاحظه الصغار من أعمال وسلوك الكبار ، ولم ينتظر من الصغار إلا تعلم ما يؤهلهم ليكونوا أعضاء مقبولين فى مجتمع القبيلة ، والظاهر أن المدارس بشكلها النظامى ظهرت فى وقت من التطور الثقافى تحتم فيه نقل

التراث المكتوب إلى الأجيال التالية ، فى وقت كان فيه تعلم البعض الكتابة ، أمراً لا مناص منه (١). وقد لا يساورنا شك فى أن هذه المدارس خضعت لسيطرة السلطات الكهنوتية ، فالكتابة وقتئذ كانت سراً لا يجب أن يتداوله إلا صفوة من الخاصة وكانوا من رجال الدين وبعض الأفراد الذين تحتم عليهم - بحكم مناصبهم - تعلم الكتابة . ولعل الدليل على صدق هذا الاحتمال أن المدارس النظامية فى مصر نشأت أساساً فى كنف المعابد حيث تعلم الكتبة المسئولون عن أرشيف القصر الكتابة .

ويلوح أن هذه المدارس النظامية انتشرت فى ثقافات أخرى لتحقق أهدافاً معينة محددة ، وأنها كانت قاصرة على فئات خاصة ، والمعتقد أن العامة لم يدر بخلدهم فى هذا الوقت المبكر من تاريخ الإنسان المكتوب أن يتعلموا ويطرقوا أبواب المدارس ، بل ما كانت هناك حاجة إلى المدارس إلا لقلة محدودة ، أما الغالبية العظمى فالحياة مدرستهم والخبرة معلمهم وحواسهم أدوات العلم . وما أروع تلك (المناهج) التى تعلموها فهى فعلا من البيئة فى محتواها وطرائقها ، وهى إلى البيئة تهدف ، وغرضها خدمة الفرد وخدمة المجتمع . وقد أقبل (التلاميذ) فى مدرسة الحياة هذه على التعلم باهتمام وشوق لأن ما فعلوه كان محسوساً مفيداً محدداً وهادفاً . لقد صهرت الثقافة فى بوتقتها سكان مصر والشرق الأوسط ، وفى هذه البوتقة تعلم الأفراد اللغة وطرائق حياة الجماعة والطقوس الدينية والحرفة التى امتهنوها ... وقد تقبلوا كل شىء دون تأفف أو اعتراض ، فإن بصمة الثقافة على العقول كانت أقوى من أن تذروها أشد الرياح وأعنفها ، اللهم إلا فى حالات نادرة ظهر أفراد حاولوا محو هذه البصمة أو تلك وفشلوا غالباً فى أوقاتهم ، ولكنهم مع ذلك نفثوا نسمة تغير قويت فيما بعد لتصبح ريحاً صرصراً عاتية ... وصار تغير .

---

(١) مر اختراع الكتابة فى مراحل عدة ابتداء من تلك الخطوط الساذجة التى عبر بها الرجل القديم عن العالم رسماً على حائط كهف إلى اختراع الحروف الهجائية .